ISSN online: 2791-2272 ISSN print: 2791-2264
مجلة العصر للعلوم الانسانية والاجتماع
Era Journal for Humanities and Sociology
www.ejhas.com editor@ejhas.com
Volume (20) December 2025 العدد (20) ديسمبر 2025

بنية الغذاء وسلوك الإنسان في مدينة تازة بالمغرب الحديث (قراءة في الجغرافيا التاريخية)

محمد السهلي
أستاذ باحث، الأكاديمية الجهوية فاس مكناس، المملكة المغربية
البريد الالكتروني: mohamedsh20689@gamil.com

الملخص

لقد أسهم الجبل في تشكيل العديد من حواضر المغرب، ومنها حاضرة تازة، التي تعد مدينة جبلية بامتياز. إذ إن موقعها والموضع الجغرافي الذي تأسست فيه بين مجموعات جبلية أهلها للقيام بأدوار سياسية وثقافية واقتصادية وتجارية ومجتمعية، كان لها كبير الأثر في سيرورة التاريخ المغربي، بل إن المجال الجبلي أسهم بشكل مباشر أو غير مباشر في صنع تاريخ اقتصادي واجتماعي للمدينة منذ تأسيسها. في السياق ذاته تحدث بن خلدون في مقدمته الشهيرة عن تأثير الهواء في ألوان البشر وأحوالهم، مبرزا أثره على الصنائع والأقوات والملابس والأخلاق والطبائع والألوان، مقارنا فيه بين إنسان الجبل وإنسان السهل، وتأثير ذلك على أحواله والعلائق الاقتصادية والاجتماعية. جعلتنا فكرة بن خلدون أن نقف عند دور الجبل في تكوين شخصية الإنسان المغربي وسلوكه، وفي صنع الحدث التاريخي، خاصة إذا كان الجبل يرتبط بحاضرة كتازة، التي تحيط بها الجبال من كل حدب وصوب. بل إن هذه الفكرة الخلدونية تدخلنا في مجال أكثر سعة هو المجال السوسيولوجي ذي الصلة بطبيعة النظام الاجتماعي لحاضرة تازة وسكان جبالها، وتركيبتها وعلاقات الإنتاج المهيمنة عليها. من هذا المنظور، تملأ كتب الرحلات تلك الثغرة التي عادة ما تتخلل كتب الأخبار فيما يتعلق بتاريخ الجبل، إذ إن هذه الأخير تهتم بالحدث وكبار الشخصيات، وتهمل البيئة الجغرافية والبيات وأنماط الحياة. لذلك لا يتأتى فهم الشروط المادية لحياة الناس وطرق كسب المعاش والعلاقات بين الأفراد والجماعات بالسهل والجبل تاريخيا إلا بالاطلاع على كتب الجغرافية، باعتبارها مصدرا للجغرافية التاريخية وللتاريخ الاقتصادي للمغرب والعالم الإسلامي. ويعد الحسن الوزان من الجغرافيين الذين اهتموا بوصف جغرافية تازة ومحيطها الجبلي، ووضع خرائط ثقافية واجتماعية واقتصادية للمجتمع التازي على نحو دقيق، إذ شكلت مشاهداته العيانية لجغرافية حاضرة تازة مرجعا أساسيا للجغرافيين اللاحقين وحتى المؤرخين. فقد مكّنت جولاته التي امتزجت فيها المعرفة الجغرافية والسياحة، عبر تازة وقبائل جبالها ومسالكها، من وصف مظاهر الأرض بها ونظام المجتمع، ومعاش السكان وطبائعهم، بطريقة لا تختلف كثيرا عن رحالة الأزمنة الحديثة، الذيم مزجوا بين المعرفة الجغرافية والجرد الإثنوغرافي.

الكلمات المفتاحية: الجبل، الغذاء، الجغرافيا التاريخية، الاثنوغرافيا، حاضرة تازة.

DOI: https://doi.org/10.33193/eJHAS.20.2025.395

ISSN online: 2791-2272 ISSN print: 2791-2264
مجلة العصر للعلوم الانسانية والاجتماع
Era Journal for Humanities and Sociology
www.ejhas.com editor@ejhas.com
Volume (20) December 2025 العدد (20) ديسمبر 2025

The Structure of Food and Human Behavior in the City of Taza in Modern Morocco (A Reading in Historical Geography)

Sahli Mohamed
Research Professor, Regional Academy of Education and Training, Fez–Meknes, Kingdom of Morocco
Email: mohamedsh20689@gmail.com

ABSTRACT

The mountain has played a key role in shaping many of Morocco's urban centers, including the city of Taza, which is a quintessentially mountainous city. Its location—nestled among several mountain ranges—enabled it to assume significant political, cultural, economic, commercial, and social roles that deeply influenced the course of Moroccan history. Indeed, the mountainous environment directly or indirectly contributed to the making of the city's economic and social history since its foundation.

In this context, Ibn Khaldun, in his famous Muqaddimah, spoke of the influence of climate on human complexion and conditions of life, highlighting its effects on crafts, food, clothing, morals, temperament, and colors. He compared the mountain dweller with the inhabitant of the plains, emphasizing how geography shaped their social and economic relations. Ibn Khaldun's idea invites us to reflect on the role of the mountain in forming the character and behavior of the Moroccan person, and in shaping historical events—especially when the mountain is tied to a city like Taza, surrounded by mountains on all sides.

This Khaldunian insight leads us into a broader sociological domain related to the nature of Taza's social system, its mountain inhabitants, and the dominant structures of production and social relations. From this perspective, travel literature fills a gap often left by chronicles when it comes to the history of the mountains. While historical accounts focus mainly on events and prominent figures, they tend to overlook the geographical environment, habitats, and ways of life. Thus, understanding the material conditions of people's lives, their means of livelihood, and the historical relations between individuals and groups in both plains and mountains can only be achieved through consulting geographical works, as these constitute essential sources for historical geography and the economic history of Morocco and the Islamic world.

Keywords: Mountain, Food, Historical Geography, Ethnography, City of Taza.

DOI: https://doi.org/10.33193/eJHAS.20.2025.395

ISSN online: 2791-2272 ISSN print: 2791-2264
مجلة العصر للعلوم الانسانية والاجتماع
Era Journal for Humanities and Sociology
www.ejhas.com editor@ejhas.com
Volume (20) December 2025 العدد (20) ديسمبر 2025

مقدمة

انبرى بعض الباحثين المغاربة منذ فترة غير بعيدة لدراسة الجبل، وقدموا أبحاثا رصينة أظهرت أن الجبال المغربية لم تكن أبدا ذلك المجال المعزول كما صوّره الباحثون الأجانب في مختلف الحقول المعرفية، الإثنوغرافية والانتروبولوجية والجغرافية، بل كان في علاقة اتصال مع السهل والحاضرة معا شملت مختلف الميادين.

لقد أسهم الجبل بما هو معطى طبيعي-جغرافي في تشكيل العديد من حواضر المغرب، ومنها حاضرة تازة، التي تعد مدينة جبلية بامتياز. إذ إن موقعها والموضع الجغرافي الذي تأسست فيه بين مجموعات جبلية أهلها للقيام بأدوار سياسية وثقافية واقتصادية وتجارية ومجتمعية، كان لها كبير الأثر في سيرورة التاريخ المغربي، بل إن المجال الجبلي أسهم بشكل مباشر أو غير مباشر في صنع تاريخ اقتصادي واجتماعي للمدينة منذ تأسيسها، فكان للجبل دور في تشكيل شخصية الإنسان بتازة وفي إبراز ملامح علاقة المجتمع التازي بالسلطة المركزية. كما أدى دورا في الحياة الاقتصادية باعتباره مزودا للمدينة بالماء وبالمنتوجات الزراعية.

من هذا المنظور، تملأ كتب الرحلات تلك الثغرة التي عادة ما تتخلل كتب الأخبار فيما يتعلق بتاريخ الجبل، إذ إن هذه الأخير تهتم بالحدث وكبار الشخصيات، وتهمل البيئة الجغرافية والبيات وأنماط الحياة. لذلك لا يتأتى فهم الشروط المادية لحياة الناس وطرق كسب المعاش والعلاقات بين الأفراد والجماعات بالسهل والجبل تاريخيا إلا بالاطلاع على كتب الجغرافية، باعتبارها مصدرا للجغرافية التاريخية وللتاريخ الاقتصادي للمغرب والعالم الإسلامي (**محمد حبيدة، 2016م، ص149**).

ويعد الحسن الوزان من الجغرافيين الذين اهتموا بوصف جغرافية تازة ومحيطها الجبلي، ووضع خرائط ثقافية واجتماعية واقتصادية للمجتمع التازي على نحو دقيق، إذ شكلت مشاهداته العيانية لجغرافية حاضرة تازة مرجعا أساسيا للجغرافيين اللاحقين وحتى المؤرخين. فقد مكّنت جولاته التي امتزجت فيها المعرفة الجغرافية والسياحة، عبر تازة وقبائل جبالها ومسالكها، من وصف مظاهر الأرض بها ونظام المجتمع، ومعاش السكان وطبائعهم، بطريقة لا تختلف كثيرا عن رحالة الأزمنة الحديثة، الذيم مزجوا بين المعرفة الجغرافية والجرد الإثنوغرافي.

أولا. الجبل وأثره في سلوك الإنسان بتازة

تحدث بن خلدون في فصل خاص من مقدمته عن تأثير الهواء في ألوان البشر وأحوالهم، مبرزا أثره على العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات، وعلى المعاملات والأخلاق والطبائع والألوان. وقد خصّ في هذا الفصل حيّزا قارن فيه بين إنسان الجبل أو التلول كما يسميها وإنسان السهل، وتأثير طبيعة التضاريس والمناخ على أحواله وأقواته وأخلاقه، وفي مسار الأحداث التاريخية والعلائق الاجتماعية والبنى الاقتصادية (**ابن خلدون، 2004، ص ص 119-133**).

تجعلنا في واقع الأمر فكرة بن خلدون عن أثر الطبيعة على أحوال الناس وعمرانهم، أن نقف عند دور الجبل في تكوين شخصية الإنسان المغربي وسلوكه، وفي صنع الحدث التاريخي، خاصة إذا كان الجبل يرتبط بحاضرة كتازة، التي تحيط بها الجبال من كل حدب وصوب. بل إن هذه الفكرة الخلدونية تدخلنا في مجال أكثر سعة هو المجال السوسيولوجي ذي الصلة بطبيعة النظام الاجتماعي لحاضرة تازة وسكان جبالها، وتركيبتها وعلاقات الإنتاج المهيمنة عليها، فهي "ضرورة منهجية لدراسة المشاكل المتصلة بالبنية الاجتماعية، لا لوضع خريطة واحدة للقبائل، على اعتبار أنها الواقع الجامد في كل العصور، الأمر الذي يبدو بحق غير ذي جدوى، ولكن لوضع سلسلة من الخرائط التاريخية المبينة لتطور بنية تلك القبائل بما تخلله من التلاحم والتفكك أو من تجدد أحد المظهرين المذكورين". (**التوفيق، 2011، ص ص 95-98**).

في كتابه عن "إيناون" أكد عبد الرحمن المودن على الأهمية التاريخية للأشكال الطبوغرافية والمناخ في مجريات الأحداث، سواء على مستوى العلاقات الداخلية للقبائل أو مع السلطة المركزية، ملحا على دور الترابط بين الطبيعة والإنسان في إنتاج الحدث وتطور بنيته. (**المودن، 1995م، ص ص 25-44**)

هذا الترابط هو ما دفع العديد من الباحثين في حقول معرفية عديدة الانكباب على دراسة المجموعات القبلية في علاقتها بالمجال الطبيعي الذي تستوطنه، منهم السوسيولوجي "جاك بيرك" (Jacque Berque) الذي اهتم بالبنيات الاجتماعية للأطلس الكبير، و"إيفان بريشارد" (Evans Pritchard) المهتم بالأنتروبولوجيا الاجتماعية

DOI: https://doi.org/10.33193/eJHAS.20.2025.395

ISSN online: 2791-2272 ISSN print: 2791-2264
مجلة العصر للعلوم الانسانية والاجتماع
Era Journal for Humanities and Sociology
www.ejhas.com editor@ejhas.com
Volume (20) December 2025 العدد (20) ديسمبر 2025

لمجال تازة، والجغرافي "فضل الله عبد اللطيف" (Fadloullah Abdellatif) الذي درس الحياة البشرية بسهل تادلة، و"بول باسكون" (Paul Pascon) حول حوز مراكش، وغيرهم مما لا يسع المجال لذكرهم.

سوف يكون إذا من باب الادعاء الساذج أن يعتقد المرء أنه بالإمكان التأريخ لمدينة تازة دون الوقوف عند تأثير تضاريسها الجبلية على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكانها، وتأثير المناخ الجبلي على طباع أهلها وسلوكهم تجاه السلطة المركزية، وهو ما تثيره الأوصاف الجغرافية والمصادر الإخبارية؛ فقد لاحظ De segonzac بأن غياثة والحياينة متصفون بالغلظة والجلد، وبأن فرسانهم متهجمين مدججين بالسلاح **(De segonzac, 1903, p22)**، أما بن خلدون قبله أشار إلى أن بعض أهلها موصوفون "بقوة الشكيمة ولهم عناد في مظاهر الدولة وحقوق عند الحشد والعسكرة وفيهم مؤن من الخيالة".(**ابن خلدون، 2000م، ص 180**).

غير أن أهم وصف عن أهل تازة وقبائلها هو ما قدمه الحسن الوزان في سياق استعراضه للخصائص الطبيعية والبشرية لجبال تازة وقبائلها، والتي يمكن استخلاص منها بعض الملاحظات:

أولا، اتصاف كل سكان قبيلة من قبائل المستوطنين لجبال تازة بصفة تميزهم عن غيرهم؛ فسكان جبل "مطغرة" ذو الغابة الكثيفة وضيق المنعرجات "قلما يحترمون ملوكهم" **(الوزان، 1983م، ص 356)**، أما سكان جبل "غياثة" فهم "شجعان كرماء يتصفون بالكبرياء" **(الوزان، 1983، ص 356)**، وسكان جبل "مكاصة" فهم "شجعان كرماء كانوا راجلين أو راكبين شديدو البياض لأن جبلهم عال وبارد" **(الوزان، 1983، ص 356)**، وسكان جبل "البرانس" يتميزون بالغنى ونساؤهم "بيضاوات بدينات يتزين بكثير من حلي الفضة لأن القوم أثرياء والرجال غضوبون حقا وذو جرأة كبيرة" **(الوزان، 1983م، ص 357)**، وجبل بني "ورطناج" (تسول) ففيه سكان "شجعان كرماء يرتدون لباس كلباس الحضريين" **(الوزان، 1983، ص 357)**، وجبل "ويبلان" تسكنه قبيلة "غنية شجاعة تعيش في حرية دائمة" **(الوزان، 1983، ص 358)**.

ثانيا، إلحاح الوزان في أوصافه على عدم أداء جل قبائل جبال تازة للضرائب، وهي مسألة تفيد بصفة التمرد على السلطة المركزية، وهي ذات الصفة كان قد لاحظها أيضا مارمول كربخال في وصفه لها. هذا التمرد كانت له دوافعه المتمثلة في المؤهلات الدفاعية الطبيعية ومواقعها المحصنة، وظّفها سكان الجبال لمواجهة السلطة المركزية، معتمدين على حسن معرفتهم ببيئتهم الجبلية، وهي بيئة ذات إمكانية معارضة للسلطة، تمكن من الاعتصام بالمرتفعات، يقول مارمول عن ذلك:" ولهم حرية على المقاومة بالجبال لدرجة أن العدد القليل منهم يهزم العدد الكثير من جند فاس" **(المودن، 1995م، ص 47)**.

وقد عاين عبد الرحمن المودن من خلال المراسلات المخزنية أن المخزن خلال القرن التاسع عشر كان يقيم لهذه البيئة الجبلية حسابها، إذ كان تعامله مع مختلف القبائل التي تشغل هذه المناطق يمتزج بين المرونة والصرامة، حسب موقع القبيلة من المسالك الأساسية بين فاس وتازة، وحسب تمنعها أم لا بمرتفعات يصعب منالها. **(المودن، 1995م، ص 47)**

بيد أن الروايات التاريخية تشير إلى استعمال الخلفاء والسلاطين كذلك لهذا المعطى الطبيعي كحصن دفاعي أوقات الاضطرابات والتقلبات في الانتماءات، فكثيرا ما كان يبرز اسم تازة ومجالها الجبلي كلما ضعفت الدولة المركزية واشتد الصراع على السلطة، ولعل الرواية التي يفيدنا بها البيذق عن فتح الموحدين للمنطقة كفيلة بتأكيد ما افترضناه؛ إذ سلك عبد المؤمن الموحدي في "فتحه" للمنطقة المسلك الجبلي لمواجهة الجند المرابطي الذي كان بالسهل، انطلاقا من جبل العرض نحو الفلاج ثم بنو مكود ثم غياثة ثم عفرا **(البيذق، 1971م، ص 52)**. ونفس الأمر يمكن ملاحظته في صراع السلطان مولاي إسماعيل مع أحمد بن محرز الذي تحصن بجبال تازة، بعد مساندة أهل فاس له في رجب 1083هـ/ 1672م إدراكا منه لاستحالة تعقبه هناك لطبيعة الجبال الوعرة **(القادري، 1982م، ص 202)**، فهي بحق "بلد امتناع" كما يقول ابن الخطيب **(ابن الخطيب، 2002م، ص 202)**.

ثالثا، هل كان لنمط الغذاء الجبلي من أثر على شخصية الإنسان وسلوكه بتازة ومحيطها؟ يصعب الإلمام بتفاصيل السؤال لكون المادة المصدرية يغلب عليها الخبر بالدرجة الأولى، لكن ما نتوفر عليه من شهادة الوزان تبقى غنية جدا، وإن كانت وصفية ومتقطعة.

ففي سياق وصفه للمحيط الجبلي لحاضرة تازة أبدى ملاحظات عن نوع المزروعات السائدة في كل جبل من الجبال، والتي تعطينا فكرة عن نمط الغذاء الذي يغلب على المنطقة كما يوضح البيان الآتي:

DOI: https://doi.org/10.33193/eJHAS.20.2025.395

ISSN online: 2791-2272 ISSN print: 2791-2264
مجلة العصر للعلوم الانسانية والاجتماع
Era Journal for Humanities and Sociology
www.ejhas.com editor@ejhas.com
Volume (20) December 2025 العدد (20) ديسمبر 2025

البيان رقم 1: المزروعات بجبال تازة حسب شهادة الحسن الوزان

اسم الجبل	نوع المزروعات التي توجد به
مطغرة	القمح + الزيتون
غياثة	الشعير
مكاصة	قليل القمح + الزيتون + الكروم
البرانس	القمح + العنب الأسود
تسول	القمح + الليمون الحامض+ السفرجل

تبين هذه المعطيات كيف أن القمح يشكل المادة الرئيسية للسكان، إضافة إلى الزيت والشعير والفاكهة، وهي مواد تتوفر على مزايا غذائية كبيرة، فالقمح يحتوي على نسبة عالية من الكربوهيدرات التي تعتبر مصدرا أساسيا للطاقة، إضافة للألياف الغذائية والبروتينات والمعادن. أما الشعير فهو غني بالبروتينات والفوسفور والمغنيزيوم والفيتامين باء1 وبيّ بيّ، وبالمواد السكرية خاصة النشويات والسيليلوز والكالسيوم، وهي تركيبة تمنحه قيمة بيولوجية تقارب قيمة القمح **(حبيدة، 2018، ص ص 62-63)**. أما زيت الزيتون فيحتوي على فيتامينات أو، بيّ بيّ وتوفر 100% من الدهنيات، وكمية كبيرة من الأحماض الدهنية غير المشبعة، تمكن الجسم من قوة كالوريهية **(حبيدة، 2018، ص 109)**. أما الفواكه فكانت تشكل وجبة غنية بالسكريات والفيتامينات التي يحتاجها الجسم، خاصة تلك التي يمكن الاحتفاظ بها طيلة السنة العنب.

إن هذا النظام الغذائي المتكيف مع شروط البيئة الجبلية المحلية له فوائد بيولوجية تضمن نشاط الجسم، فلا غرابة إذن أن نجد الوزان يربط بين نظام الطعام ونشاط الجسم، إذ تحدث في وصفه لسكان المناطق الجبلية عن كبار السن البالغين السبعين والثمانين سنة "يحرثون الأرض وينقشون الكروم ويقومون بسائر الأعمال بخفة عجيبة" **(الوزان، 1983م، ص 66)**. إفادة تتناسق مع شهادة "جورج هاردي" (George Hardy) حول النظام الغذائي في المغرب، إذ لاحظ قدرة المغاربة على القيام بأعمال شاقة رغم هزالة طعامهم المكون من خبز الشعير وقليل من التمر **(حبيدة، 2018م، ص 126)**.

هذا النظام الغذائي بمكن أن يفسر لنا جانبا من شخصية الإنسان الجبلي بتازة وسلوكه الاجتماعي، إذ أظهرت العديد من الدراسات الحديثة أن النظام الغذائي له تأثير على المزاج والعقل والتوتر والقلق، أي أن له علاقة بالصحة النفسية والسلوك **(ESPOSITO, 2021, p p 1149-1159)** وبالتالي فالصفات التي قدمها الوزان عن سكان المناطق الجبلية بتازة، كالشجاعة والغضب والجرأة والتمرد يحتمل أن تكون لها ارتباط بالنمط الغذائي، المتسم بالقلة والفقر، مما أكسبهم القدرة على المقاومة حينما تشتد الحياة أوقات الاضطرابات السياسية والقحط

DOI: https://doi.org/10.33193/eJHAS.20.2025.395

ISSN online: 2791-2272 ISSN print: 2791-2264
مجلة العصر للعلوم الانسانية والاجتماع
Era Journal for Humanities and Sociology
www.ejhas.com editor@ejhas.com
Volume (20) December 2025 العدد (20) ديسمبر 2025

والمجاعة وأثناء الحصار، عكس أهل الحواضر المتعودين على كثرة الغذاء، ويعضد ذلك المقارنة التي قام بها بن خلدون في فصل خاص حول "اختلاف العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الأثار في البدن وألوان البشر وأخلاقهم"، إذ توصل إلى أن سكان الحواضر المنغمسين في العيش تنكشف ألوانهم وتقبح أشكالهم من كثر اللحم "وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة فتجيء البلادة والانحراف"، أما أهل الجبال "فألوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن وأخلاقهم أبعد من الاحراف وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات " **(ابن خلدون، 2004، 120)** .

ثانيا. الجبل والإنتاج الزراعي بتازة

بالرغم من أن تازة وقبائلها تقع معظمها ضمن تضاريس جبلية، فإنهم كانوا كغيرهم من سكان الأطلس زراعا وشجّارين، إذ كان أكثر عملهم منصرفا إلى استثمار بقع أرضية متناثرة في مدرجات أو على جنبات الأودية، تشرف عليها القبيلة. وقد أشار أكثر من واحد من الرحالة إلى خصوبة الأراضي بتازة ومحيطها الجبلي، إذ يذكر "دوفوكو" (de Foucauld) أن مدينة تازة تحيط بها بساتين من الجزء الجنوبي، وحدائق غنّاء من جميع الجهات، تسقى بمياه واد تازة والمسيلات النازلة من الجبل، مشكلة غابة كثيفة من الأشجار المثمرة، تغطي "الحدائق الهضبية المحيطة بكل جوانب المدينة من الغرب" **(دوفوكو، 1999، ص ص 42-43).**

بيد أن وصف "دوفوكو" كغيره من الرحالة الأجانب الذين مروا بالمنطقة لا يخلو من خلفيات مبيّتة، ويفتقد للمصداقية، لكونه تعميميا **(العروي، 2016، ص 46)** ذو انطباعات مشروطة بفترة مرورهم، وبالتالي يصعب كما يقول عبد الرحمن المودن اعتمادها في أي "محاولة كمية خارج الأحكام التعميمية أو الكيفية"، **(المودن،1995، ص 175)**، مشيرا إلى أهمية الوثيقة المخزنية في إعادة تاريخ الإنتاج الزراعي ومقاديره، انطلاقا من وثائق الجباية، لما تزخر به من معلومات مضبوطة وفريدة.

إذ توصل فيما يخص الحيانة لجملة من الملاحظات حول الإنتاج الزراعي يمكن إيجازها في شدة التقلبات المناخية، وتأثيرها على المحصول الزراعي واختزان الحبوب، وعلى سلوكهم تجاه المخزن، إضافة لتأثير التوزيع الجغرافي للقبيلة ومدى تحكمها في مصادر المياه، وغلبة إنتاج الشعير وعلف الماشية على مجموع الإنتاج **(المودن، 1995، ص ص 179-180).**

إلى جانب الوثائق المخزنية التي أكد المودن على أهميتها في التأريخ للإنتاج الزراعي، تلقي كتب الجغرافيا الضوء على جانب مهم من الحياة الزراعية بتازة ومحيطها الجبلي، وإن افتقدت للعنصر الكمي لدراسة الظاهرة الفلاحية بالمنطقة، إلا أن أوصافها تظهر استغلال مكثفا للأراضي سواء بالجبل أو السهل كما يوضح البيان الآتي:

البيان رقم 2: المنتوجات الزراعية حسب المصادر الجغرافية

المصدر الجغرافي	القرن	المنتوج الزراعي
صورة الأرض، ابن حوقل	4هـ/ 10م	"وهي مدينة لطيفة كثيرة القمح والشعير" ص87
كتاب الجغرافية، الزهري	6هـ/ 12م	"ومعمور الرباط المعروف بمدينة تازة وهي كثيرة الضرع والزرع والفواكه" ص 114.
الاستبصار، مؤلف مجهول	6هـ/ 12م	"وأول بلاد المغرب تازا وهي جبال عظيمة حصينة كثيرة التين والأعناب وجميع الفواكه وأكثر شجرها الجوز ويوجد بها كثيرا" ص 186.
معيار الاختيار، ابن الخطيب	8هـ/ 14م	"وجلت فيه مواهب الله وآلاؤه (...) وفواكه لا تحصى البلد الأقصى وحبوبه تدوم للخزن" ص 182.
الروض المعطار، الحميري.	10هـ/ 15م	"ولها نظر كبير كثير الزرع والفواكه وجميع الخيرات" ص 128.
وصف إفريقيا، الوزان	10هـ/ 16م	"وحول المدينة شعب نسقيه جداول ماء في غاية الجمال وتكثر فيه بساتين تنتج كميات وافرة من ألذ الثمار وكروم تعطي محصولا طيبا من العنب الأبيض والأحمر والأسود" ص354.

DOI: https://doi.org/10.33193/eJHAS.20.2025.395

ISSN online: 2791-2272 ISSN print: 2791-2264
مجلة العصر للعلوم الانسانية والاجتماع
Era Journal for Humanities and Sociology
www.ejhas.com editor@ejhas.com
Volume (20) December 2025 العدد (20) ديسمبر 2025

تشير المعطيات الوصفية التي تقدمها كتب الجغرافيا إلى أن بلاد تازة ومحيطها أرض لزراعة الشعير والقمح والفواكه، بالرغم من سيادة الجبال على جغرافيتها، مع استغلال مكثف للسفوح وضفاف الشعب والأنهار.
كما تظهر الأوصاف وجود فروق كبيرة في الاستغلال الزراعي، فبعض مجالاتها كثيرة "القمح والشعير"، وبعضها كثير "التين والأعناب"، وأخرى لا ضرع فيها ولا زرع، ولعل ذلك هو ما جعل الرحالة الأجانب يصنفون بعض أراضيها بضعف استغلال إمكانيات الأرض، وبخمول سكانها. بيد أن أوصاف الجغرافيين تفيدنا في التمييز بين نوعين من المزروعات: زراعة الحبوب والزراعة الشجرية كالجوز والعنب والزيتون، مع هيمنة زراعة الشعير والحبوب على المشهد الفلاحي، نظرا لمقاومته للظروف المناخية والتضاريسية، وباعتباره المادة الأساسية في التغذية كما أسلفنا الذكر، وأيضا لقدرته على مقاومة عوامل الطبيعة أثناء التخزين.
يظهر التفاوت أيضا في أوصاف الجغرافيين نفسها، إذ اقتصرت أوصاف القرنين 4-6هـ/ 10-12م على ذكر القمح والشعير، بينما ابتداء من أواخر القرن 6هـ/ 12م بدأت المصادر تتحدث عن انتشار الزراعات الشجرية وخاصة الفواكه، وتنوعها بالمنطقة، أي أننا أمام تحول في نوعية النشاط والمشهد الزراعي، هذا التحول لا يمكن فهمه إلا من خلال عنصرين يخصان قوى لإنتاج:
الأول، له علاقة بالديمغرافيا، إذ الظاهر أن المنطقة كغيرها من مناطق المغرب قد شهدت تراجعا ديمغرافيا بين الفينة والأخرى، بسبب المجاعات والأوبئة، أو بسبب الحصار والحروب التي كانت تازة وقبائلها قد تعرضت لها نتيجة تقلب الولاءات وتغير السلطة المركزية **(البيذق، 1971، ص ص 21-52)**، والتي تعيد الإنتاج الزراعي إلى الصفر.
الثاني، يتمثل في ضعف التقنيات والملكية المجهرية للأرض. فبحكم طبيعة التضاريس لتازة فالظاهر أنه لم يحصل تطور على مستوى الأدوات المستعملة في الزراعة، مما كان له أثر على مستوى الإنتاج والتراكم الاقتصادي، وظلّ السكان يستعملون تقنيات موروثة عن الأجداد، ولعل ذلك ما أثار انتباه أحد الرحالة الأجانب عند قدومه للمغرب معلقا على الوضع الفلاحي بقوله: "إنهم يستخدمون محراث بسيطا وثورين لحرث الأرض التي يبذرونها على الفور، وبمحراث آخر أكثر حدة يقلبون الأرض ويتركون الباقي للطبيعة" **(المنصور، 2012م، ص74)**.
أما على مستوى ملكية الأرض فقد كانت تتجزأ إلى قطع صغيرة لضعف التقنيات على شكل ملكيات عائلية، مع تبني زراعة المدرجات **(المنصور، 2012م، ص 75)**، مما كان يعيق نمو قوى الإنتاج، أي أننا أمام علاقات إنتاج "عتيقة" تسود فيها الملكيات الصغيرة بسبب ضعف التقنيات الزراعية، وهي إحدى عوامل الانحباس الاجتماعي والاقتصادي لعتاقة المجتمع **(حبيدة، 2016م، ص 108)**.
وإذا كان يصعب تناول الإنتاج الزراعي بتازة ومحيطها الجبلي من منظور كمي بسبب غياب تسلسلات الإنتاج والأسعار بصورة متجانسة، فإن ما نتوفر عليه سوى مؤشرات ذات دلالة عامة لا تسمح بإعادة بناء صورة عن إنتاج الحبوب من خلال رصد تقدير كميات الإنتاج.
فإذا انطلقنا من الرقم الذي قدمه لنا الوزان حول عدد سكان تازة، وهو خمسة آلاف كانون **(الوزان، 1983م، ص 355)**، وإذا أخذنا بالمعطى الذي توصل إليه حبيدة كون الضريبة التي كانت تدفع في القرن السادس عشر تقدر بحمل جمل، أي حوالي عُشُر الإنتاج **(حبيدة، 2018م، ص 51)**، أي 10.000 قنطار من الحبوب (الشعير والقمح)، ومعنى ذلك افتراضا أن الإنتاج كان يناهز 100.000 قنطارا بالقياس إلى ساكنة عددها 25.000 ساكنة، مما يؤشر على إنتاجية تقدر بأربعة قناطير للفرد الواحد، وهو تقريبا نفس الرقم الذي توصل له حول سهل الشاوية في ذات الفترة **(حبيدة، 2018م، ص 52)**.
في السياق نفسه، تكشف المعطيات المتوفرة بأن المشهد الزراعي كان ينقسم إلى صنفين: بلاد البور وبلاد الساقية. فبلاد البور كانت خاضعة خضوعا تاما للأمطار، بحكم المناخ الجبلي الذي ميّز المنطقة والمتسم بكثرة التساقطات المطرية، خاصة في فصلي الشتاء والخريف، إذا كان الإنتاج يتماشى مع هطول الأمطار حيث "تسمح الأمطار الخريفية والشتوية من أكتوبر إلى يناير بحراثة الأرض وزراعة المباشرة للحبوب المبكرة كالقمح والشعير (...) في الربيع من فبراير إلى أبريل تساعد الأمطار الأخرى في نمو الزراعات السابقة وتمكن من إكمالها بزراعة نباتات تتطلب حرارة أعلى للإنبات أو فترة نمو أقصر أو تتحمل أقل الجفاف في بداية الصيف" **(ROSENBERGER, 1980, p 482)**. وقد كانت جودة القمح بالجبال توازي جودة ما كان يحرث بالسهل، حيث كانت تنتج الأرض كميات جيدة حسب شهادة برتغالي سنة 1596م. **(DE CASTRIES, 1909, p 122)**

DOI: https://doi.org/10.33193/eJHAS.20.2025.395

ISSN online: 2791-2272 ISSN print: 2791-2264
مجلة العصر للعلوم الانسانية والاجتماع
Era Journal for Humanities and Sociology
www.ejhas.com editor@ejhas.com
Volume (20) December 2025 العدد (20) ديسمبر 2025

إلى جانب الحبوب كانت زراعة الأشجار في الأراضي البورية رئيسية في المشهد الزراعي، إذ شكلت مظهرا أساسيا في حياة سكان الجبال، ومصدر ثروتهم، فلا غرابة إذن أن نجد الوزان يصف قبيلة جبل "البرانس" بالثراء لانتشار حدائق الكروم والعنب الأسود **(الوزان، 1983م، ص 357).**

أما بلاد الساقية فالغالب أنها تنتظم بمدرجات الجبال للاستفادة من المياه النازلة منها أو على طول المجاري المائية **(الوزان، 1983، ص 248)**، وكانت الحدائق والبساتين تفرض وجودها على المشهد الذي خصّص لبعض أنواع الفواكه **(الوزان، 1983، ص ص 357-358)**، يقول الحميري عن ذلك: "مدينة الرباط أعني في جبال تازا ومدينة الرباط هذه كبيرة في سفح جبل عال مشرفة على بسائط تشقها جداول المياه العذبة، عليها سور عظيم، وهي في فسحة من نحو ستة أميال ما بين جبال، تنصب إليها من تلك الجبال مياه كثيرة وأنهار تسقي جميع بساتينها، ولها نظر كبير كثير الزرع والفواكه وجميع الخيرات" **(الحميري، 1984، ص 128).**

هكذا إذن تحددت الحياة الزراعية بتازة ومحيطها الجبلي، تنوع فيها المشهد الزراعي على مستوى الإنتاج والنوع، خالقا بذلك تعددية وتناسقا مجاليا ووحدة دينامية تظهر قدرة الإنسان على التكيف مع المعطيات الطبيعية والظروف الاجتماعية والسياسية.

من ناحية أخرى، لما كان الماء قاسما مشتركا بين البادية والمدينة، واختلاف عوائد الناس وحاجتهم له، فالبدو "يقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه، وأن الحضر معتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم" **(ابن خلدون، 2004م، ص 163)**، كان الصراع حوله على أشده، يقول "دوفوكو": "أما فيما يخص أهل غياثة الذين تقع مدينة تازة داخل محيطهم فإنهم يعاملون هذه المدينة معاملة الأراضي المحتلة فيسلبون عنوة كل ما يروقهم ويسفكون ساعاتها دماء من لا يمتثل لأوامرهم عن طيب خاطر. خارج الأسوار يفرض أهل غياثة على المدينة حصارا مستمرا، لا أحد من سكان المدينة يتجرأ على مغادرة المدينة دون مرافقة أحد أفراد القبيلة (...) إلى حد أن السكان لا يقوون على الذهاب بمفردهم لملء جراتهم ماء من واد تازة هكذا يصبح لغياثة احتكار الماء الذي يأتون به إلى المدينة مقابل أجرة" **(دوفوكو، 1999، ص 44).**

على أن هذه الظاهرة، ظاهرة التحكم في مصادر الماء، كانت معروفة بتازة منذ القرن السادس عشر، وهي التي يخبرنا بها الوزان: "ينحدر من الأطلس نهر صغير يمر بالمدينة ويخترق الجامع الكبير، ويُغيّر الجبليون أحيانا مجراه عندما يختصمون مع سكان المدينة ويصرفونه إلى مكان آخر، فتتأذى المدينة كثيرا إذ لا يمكن حينئذ طحن الحبوب ولا الحصول على ماء صالح للشرب ويضطر السكان إلى الاكتفاء بماء الخزانات العكر ثم يرد الجبليون الماء إلى المدينة عندما يعود السلام" **(الوزان، 1983، ص 354).**

تظهر هذه الأحداث العلاقة المتوترة بين تازة ومحيطها الجبلي، وارتهانها فيما يخص حاجياتها المائية بالجبل، الذي هو منبع الماء وبإرادة القبائل، أي أن هناك صراع اجتماعي واقتصادي بين المدينة والقبيلة تجسدت معالمه في اتخاذ الماء كسلاح للقبيلة، تلجا إليه كلما عرض عارض بينهما وبين سكان مدينة تازة. وحري بالقول، إن هذا التعارض ما هو إلا تعبير عن احتجاجات أهل الجبل على شتى أشكال السيطرة التي كانت تتمتع بها تازة، فهي على المستوى الرمزي مقر للممثل المخزني، ومنها تنطلق الحركات والأمداد، وأهلها يُسخرون الفلاحين من أهل الجبل لخدمات لفائدة المخزن في ميدان الزراعة.

إن ما يهمنا هنا ليس تحليل إشكالية التعارض بين المدينة والبادية، فقد تعرضت لذلك دراسات عديدة بالتحليل المفصل، لكن ما نود إثارة الانتباه إليه هو ما كان ينتج عن قطع القبائل للماء عن تازة من تصدع للبنى والروابط الاجتماعية داخل المدينة، يتجلى هذا التصدع في النازلة التي عرضها الونشريسي حول اختلاف أهل تازة في قسمة الماء المجلوب إلى المدينة **(الونشريسي، 1981م، ص38)**، وهو اختلاف ناتج عن قلة الماء وانقطاعه عن أهل زُقاقين، خاصة زمن الصيف، الذي تعمد فيه القبائل إلى قطعه لسقي محاصيل الذرة، فتقع بسبب ذلك المشاحنة والمضاربة، بسبب ما يمثله الماء من رأسمال اقتصادي ورمزي في المجتمع، وما يتبع ذلك من استفحال لمظاهر الغش في المعاملات واحتكار للمياه وزيادة الأنانية والأثرة.

تكشف النازلة أيضا أن ملكية الماء تعود لأهل المدينة لكونه مشترى من أربابه، جاء فيها: "وأصل ماء هذه البلدة مجلوب من موضع بعيد ما يظهر بعقود قديمة مشترى من أربابه مجلوب إلى البلدة المذكورة ليس لأحد فيه حق من أهل البادية" **(الونشريسي، 1981م، ص 38).** ولما كان أهل البادية متميزون بالضعف على المستوى الثقافي وقلة المعرفة وضعف الدين **(الونشريسي، 1981م، ص 92)**، وهيمنة الأعراف على الحياة الاجتماعية، فإن اعترافهم بالحقوق المائية للمدينة ولو بعقود عدلية شرعية لا تعد كافية بالنسبة لهم للاعتراف بتلك الحقوق، فتجدهم

DOI: https://doi.org/10.33193/eJHAS.20.2025.395

ISSN online: 2791-2272 ISSN print: 2791-2264
مجلة العصر للعلوم الانسانية والاجتماع
Era Journal for Humanities and Sociology
www.ejhas.com editor@ejhas.com
Volume (20) December 2025 العدد (20) ديسمبر 2025

يغيرون على المصادر المائية كلما استحكمت العصبية فيهم، فيكون تدخل السلطة المركزية في مثل هذه الحالة يتخذ صفة استعجالية، باعتبار المدينة مصب الحكم المخزني.

أخيرا تفيد النازلة أن الماء المجلوب لمدينة تازة كان يقسم على ثلاثة أقسام: قسم لساقية بجهة الرياض الكبير وما والاه. وقسم لساقية بجهة القصبة وما والاها. وقسم لساقية عظمى تشق البلد يخرج منها الماء إلى معد وأنقرة كل يسير إلى ما والاه من الجهات، وفي المعد قواديس لتوزيع الماء على مساجد المدينة وحماماتها وسقاياتها وسواقي زقاقها وسائر الناس لأجبابهم (**الونشريسي، 1981م، ص 38**).

الخاتمة

في المحصلة، إن مدينة تازة هبة جبالها على المستوى الغذائي (الزراعة) والتزود بالماء، وقد أسهمت تلك العوامل وغيرها في تكوين الإنسان، ويكفي الاطلاع على كتب الرحلات والأخبار للتبين من ذلك بتفاصيل مهولة في كثير من الأحيان. ومما لا شك فيه أن هذا الارتباط القوي بين تازة ومحيطها الجبلي له أثر في مسار تطور البنيات الاجتماعية والاقتصادية تبعا للظروف الطبيعية والسياسية والديمغرافية.

النتائج

من النتائج التي توصلنا إليها أن المجال الجبلي ليس مجرد إطار طبيعي بل هو عامل محدد في تشكيل الشخصية المحلية من حيث عاداته الغذائية وانماط عيشه، عبر فرض نمط خاص من المعاش قائم على الزراعة الجبلية والرعي، ما جعل الاقتصاد بتازة ذو طابع معيشي يعتمد على الاكتفاء الذاتي أكثر من التجارة البعيدة. لقد أسهمت البيئة المحلية في إنتاج ثقافة مميزة تتمثل في المأكل والعلقات الاجتماعية والهوية المحلية، وهو ما كشفت عنه النصوص الجغرافية في مقدمتها عمل الحسن الوزان الذي سد ثغرات النصوص التقليدية، موفرا معطيات حول حياة الإنسان والبنية المعيشية.

التوصيات

اما التوصيات فهي تتركز على تعميق البحث في العلاقة بين الجغرافيا والسلوك الإنساني، والاستثمار في التراث الجبلي المحلي بالحفاظ على الموروث الغذائي والثقافي للجبل، وإعادة قراءة أوصاف كتب الجغرافية والرحلات في بناء معرفة إثنوغرافية حول المجتمعات الجبلية وتوظيفها في فهم دينامية الإنسان والمجال في حواضر الجبل المغربي.

المصادر والمراجع

1-ابن الخطيب. (2002). معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
2-ابن القطان، الكتامي. (1990). حسن بن علي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان. (ط.1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
3-ابن حوقل، أبو قاسم بن علي، (د.ت). صورة الأرض. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.
4-ابن خلدون، عبد الرحمن، (2004). مقدمة ابن خلدون. القاهرة: دار الفجر للتراث.
5-ابن خلدون، عبد الرحمن. (2000). ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر.
6-ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد، (2013). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (ط.1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
7-التوفيق، أحمد. (2011م). المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (اينولتان 1850-1912). (ط.3). الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
8-حبيدة، محمد. (2016). بؤس التاريخ مراجعات ومقاربات. (ط.2). الرباط: دار الأمان.
9- حبيدة، محمد. (2018). المغرب النباتي الزراعة والأغذية قبل الاستعمار، مطبعة دار النشر المغربية.
10-الحميري، محمد بن عبد المنعم. (1984). الروض المعطار في خبر الأقطار. (ط.2). بيروت: مكتبة لبنان.
11-دوفوكو، شارل. (1999). التعرف على المغرب 1883-1884. (ط.1). الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
12-الزهري، أبو عبد الله بن أبي بكر. (د.ت). كتاب الجغرافية. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

DOI: https://doi.org/10.33193/eJHAS.20.2025.395

ISSN online: 2791-2272 ISSN print: 2791-2264
مجلة العصر للعلوم الانسانية والاجتماع
Era Journal for Humanities and Sociology
www.ejhas.com editor@ejhas.com
Volume (20) December 2025 العدد (20) ديسمبر 2025

13-الصنهاجي، أبو بكر(البيذق). (1971). أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. (ط.1). الرباط: دار منصور للطباعة والوراقة.
14-العروي، عبد الله. (2016). الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830-1912. (ط.1). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
15-القادري، محمد بن الطيب. (1982). نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. (ط.1). الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
16-مجهول. (1985). الاستبصار في عجائب الأمصار. الدار البيضاء: دار النشر المغربية.
17-المنصور، محمد. (2012). المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين 1792-1822م. (ط.2). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
18-المودن، عبد الرحمن. (1995). البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر. (ط.1). الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
19-الوزان، الحسن (الفاسي). (1983). وصف إفريقيا. (ط.2). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
20-الونشريسي، أبي العباس أحمد بن يحيى. (1981). المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والاندلس والمغرب. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
1- De Castries, Henry. (1909). Une description du Maroc sous le règne de moulay Ahmed El-Mansour (1596). Paris.
2- De Segonzac. (1903). Voyages au Maroc 1899-1901. Paris : Librairie Armand colin.
3- Esposito, Cecilia Maria. (2021). "Alessandro Ceresa and Massimiliano Baoli, The Association between personality traits and dietary choices: systematic review", In Advances in nutrition, 12(4).
4- Sources inédites histoire de Maroc, Archives de France, Tome 2
5- Spence, Charles. (2022). "what is link between personality and food behavior", In Current research in food science, volumes 5.
6-Rosenberger, Bernard. (1980). « Cultures complémentaires et nourritures de substitution au Maroc XVe-XVIIIe siècles », Annales Economies, Sociétés, Civilisation.

DOI: https://doi.org/10.33193/eJHAS.20.2025.395